كلمة تأبينية على روح المرحوم: كامل المراتي : ثائر العلم والحق^(*)

بقلم: أ.م.د. مازن مرسل محمد**

عرفته قديماً عندما كنت انسل لأتابع بعض الندوات والمؤتمرات التي تُقام في بيت الحكمة العراقي، وما لفت انتباهي إليه ثورته التي لا تهدأ عندما يبدأ بطرح ملاحظاته البحثية، فظننت انه عصبي المزاج في تلك اللحظة أو شخص صعب المراس وغازب دائماً مما ينعكس ذلك على أطروحاته، إلا أنني وجدت ذلك ثورة تنتاب الفقيد عندما يتصدى للعلم بهمة وجرأة وقوة وكأنه يقاتل لإيصال المعلومة إلى المتلقي بصيغة تتبعها ملكة التحليل والفروض القابلة للنقاش، بحيث يعمل على فتح مدارك المستمع وتحفيزه على البناء الفكري وزيادة التراكمات عليه.

التقيت بهذا الإنسان الثائر كما رسمته مخيلتي والذي توقعت أن يكون اللقاء به يملك إحدى الصور الثورية كما هو الحال في ثورته العلمية، فوجدته وديعاً حلوقاً طيب القلب يمتلك تواضع العلماء، لكنه في المقابل شديداً غير متساهلاً مع أشباه المتعلمين والمتقنين ولا يخشى في ذلك لومة لاعم، ويملك رؤى نقدية منطقية وواقعية تحاكي مأساة الحياة في الوطن وعلى مستوى الحياة البشرية، فكانت انتقاداته أسوأ ما يجلد بها الواقع العراقي والعربي بتصورات تحليلية تترك ورائها تساؤلات كثيرة تحتاج لأجوبة معمقة ودقيقة قد نصل من خلالها إلى معالجات تُقضي للأمن الاجتماعي.

ترى الفقيد دائماً مُنكباً على العمل ويتجوّل في ميادين الفكر والثقافة بهمة وحيوية ابن العشرينيات أو الثلاثينيات، ولا يعترف بخريف وهرم العمر، لذلك كنا دائماً ما نجد

(*) توفي في بغداد ، بتاريخ 2014/9/5 في اليوم الذي تم الإعلان فيه عن اللجنة العلمية للمجلة والتي كانت تضم اسمه، كان رحمه الله جد متحمس لفكرة المجلة والمركز وأعرب لنا في العديد من المرات التي تواصلنا معه إلكترونياً عن رغبته العميقة في المساعدة ومد يد العون والتشجيع (هيئة التحرير) .
** - أستاذ الأنثروبولوجيا - الجامعة المستنصرية / العراق.

معطاءً يجعلك تشعر عندما ترى دأبه ونشاطه بأن عجلة العلم والثقافة لا تتوقف أبداً ولن تنتكس راية الفكر من خلال هذه الصورة.

لم أكن أتخيل أنه ابن الستين من العمر أو ما يزيد عند لقاءه بعنفوانه وضحكته البريئة ومشاغله الكثيرة التي كان دائماً يتغلب على همومها، ولن ترهقه زحمة العمل الفكري واصطفاف تساؤلات الواقع التي كانت تحتاج إلى أجوبة منطقية تضع النقاط على الحروف، بل يشفق غير هذه التساؤلات بحرصٍ ونقدٍ عسى أن يسير بالحياة إلى بوابة الأمان، وغالباً ما كان يُعارض على ثورته التي يُفسرها البعض تفسيرات شخصية قد تؤخذ على أنها محاولات الانتقاص من الآخر أو الحط من كرامته وسمعته، إلا أن الآلية النقدية التي تمتع بها كانت تقوم على تشخيص العلل ومحاولة إيجاد الحلول المرضية لها، كما لا يعترف بالذين صعّدوا على أكتاف العلم والعلماء وبعدهم آفة تتخر في جسد الفكر والثقافة وستؤدي إلى هدم وتآكل الوطن.

مع اشتداد الأوضاع سوءاً في العراق كان يصرخ صراحاً عالياً بلغة الأكاديمي المتقف فيشخص العلل، لكن ما يغضبه كثيراً ضياع التطبيق الحقيقي لمعالجة إشكاليات مجتمعه، فعُرف بلازمة لطالما سمعته يصرخ بها وهي (لقد ضاع الوطن) لشدة ما كان يلمسه من تردٍ واضح وخوف كبير على وطنٍ كان مهد الحضارات ومهبط الأنبياء وترجمان العلم والمعرفة، أراد مجتمعاً خالياً من أسس الفساد واستلاب العقل الإنساني وحاول وضع أسس ذلك بصوره العلمية البحتة من خلال معالجاته في بحوثه وندواته ومؤتمراته التي كان يشرف عليها وقيمها، عسى أن يخرج بحصيلةٍ تتلقفها الجهات والمؤسسات المعنية لتساهم في بناء الوطن.

كان نداً للفساد والمفسدين الأمر الذي جعل خصومه من هذه الفئات كثيرون، دائماً ما يصعقهم بكلامه الذي يدك به معاقل جبروتهم ولم يكن يأمل من ذلك كسب معركة استعراض القوة والبحث عن الشهرة، وإنما هي ردة فعل ضمير حي يخشى أن تُهدم أسوار الوطن وعقوله بالهامشيين والمنتفعين، لذلك رفع راية محاربة الفساد بما كان يستطيع فعله وكرّس لذلك العديد من النقاشات والأطروحات المهمة في إطار الأنشطة الفكرية والثقافية التي شارك وأشرف عليها.

خرج المرآياتي من التعليم الأكاديمي وفق قانون التقاعد الذي يترك شرحاً كبيراً في بعض الأحيان عندما يطال خيرة العلماء في الوقت الذي تكون الجامعة والتخصص ومنتلي العلم بأمس الحاجة له، فرحت في وقتها وحننت أيضاً، فالأولى لأن المرآياتي يستحق الأكثر خارج الجامعة ليحتوى علمه وفكره وروحته التي يعمل بها، وحننت لأنني لم اعد أراه في اليوم الدراسي وقد تعودت أن اذهب لرؤياه في غرفته لنتناقش ونتحاور تارة ونخطط للقادم تارة أخرى على مستوى العلم.

لا أقول أن الموت قد سرقك مناً فهو حق على كل إنسان، لكنك رحلت مبكراً في الوقت الذي لم نكتفِ منك، ورغم غياب جسدك عن أنظارنا ستبقى روحك تؤنسنا محبيك وتشكل رعباً للمفسدين. رحمك الله وسنكمل المسيرة بعدك وعلى نهجك بأذنه تعالى.